أيامنـــــا الخالدة

بقلم الكاتبة الاجتماعية زينب محمد حسين

لاشك أن نهوض بأمة أدبيا واجتماعيا ، هو أهم ما يجول بأذهاننا جميعا على اختلاف طبقاتنا ، وقد علمتنا التجارب أن الفقر هو علة تأخر الأمم الضعيفة ، وهو السبب المباشر فيما تعانيه من مشاكل متعددة ، وأن المال قد صار الآن بالنسبة للامم أقوى من الديناميت وأشد خطرا من القنابل والمفرقعات ...

فلولا المال ما تقدم الاختراع ، ولغير المال ما أنشئت الأساطيل ، وبدون المال ما خرجت فكرة إلى حيز الوجود ...

فإذا وجد المال فى أمة إلى جانب التضامن الاجتماعى بين أفرادها ، فلن يعوزها شيء من أدوات التقدم والسيادة .

وليس التضامن الاجتماعى هو أن نكون أغنياء ونظهر توجعنا للفقراء فى كلمة مثيرة ، ولا أن نكون أقوياء قادرين فنساعد الضعفاء بابتسامة واهنة سرعان ما تتلاشى !! كلا ، فليس هذا هو التضامن الاجتماعى وقد فات زمن الكلام والابتسام ، وشبع الفقراء من ذلك الغذاء السلبي الزائف ، وهم يريدون الآن المساعدة الفعالة التى تنتشلهم من وهدة العوز ، وتخلق منهم رجالا قادرين على القيام بواجباتهم ، وتصون كرامتهم وتحفظ كيانهم كأفراد لهم قيمتهم فى الحياة .

لقد علمتنا الأيام أنه ليس كالعمل السريع ، لإنقاذ ما ينقذ سمعة الأمة من وصمة الجوع والعرى والحرمان ، إذن فليكن شعارنا جميعا ... تقدم ... واعمل ، لا .. انتظر ... ثم . توجع !!

وإنه لمما يبعث الأمل حلوا فى نفوسنا أننا نشعر بروح قوية تسود بين بعض أفراد أمتنا ، تلك الروح التى لا ينقصها إلا بعض التشجيع والإقدام كى تنبعث قوتها وتتدفق حيويتها ، ويتلاشى من بنيها ذلك الضعف العاطفى الممقوت ... وتتحرر من حب الإيثار .

فنحن بحمد الله ، أمة فتية لها آمال جسام ، وقد كان حقيقا بهذه الآمال أن تتحقق من زمن بعيد لو أمكننا أن نقضى على روح الأنانية والإيثار التى تتفشى بين طبقاتنا ، ويظهر أثرها واضحا إزاء المجتمع ، فضلا عما تسبب للفرد نفسه من نتائج سيئة تعود عليه بالخيبة والفشل ...

فالفرد يغلب عليه الإيثار وانشغاله بالتفكير فى نفسه ، تفكيرا تسيطر عليه الأنانية ويشمله حب الذات ، وهذا فى رأيى ضعف فى أخلاق الشعوب يرجع إلى مبدأ التكوين ، فإذا

رجعنا إلى الوراء فى حياة الفرد فرافقناه من مهد الطفولة إلى مدارج الرجولة والنفع العام ، لرأيناه وهو طفل يتمتع بمحاباة يظهر أثرها عند ما يختصه أبوه أو أمه بقطعة كبيرة من الحلوى مثلا دون سائر أخوته باعتباره أصغر الأخوة ، أو يختصونه برداء جميل متسترين تحت عنوان الابن الأصغر ، وكلما منّ الله على الأبوين بطفل جديد كلما كان ذلك الطفل موضع عناية كبيرة من الأبوين ، فيمر الطفل بنوع من الأثرة أو الإيثار يتملكه عند ما يرى نفسه ممتازا عن الآخرين ، وأنه مسئول من الغير وله صفة ممتازة تبيح له الحصول على أكبر جزء مما تشتهيه ، فهذه المرحلة هى من أخطر المراحل التى ينتج عنها روح الإيثار والأنانية فى الفرد .

وقد صادفت يوما طريقة أعجبتنى تساعد فى القضاء على هذه الروح فى النفس إذا كانت من خصائصها أو على الأصح فى تكوينها كما يقول بعض العلماء ، فقد رأيت يوما سيدة تجلس فى إحدى الحدائق العامة وحولها أولادها يلعبون وفى يد كل منهم برتقالة كبيرة ، فمر طفل شريد ومد يده إلى الأطفال راجيا قطعة مما فى يدهم ، فوجد من الأطفال إعراضا ، ولكن السيدة الحكيمة لم تشأ أن تفتها الفرصة فنادت الصبى المشرد وأعطته برتقالتين هما كل ما كان قد تبقى معها فى كيس الفاكهة ، وكان ذلك بطريقة لفتت أنظار الأطفال إليها ، وما أن ابتعد الصبى ليقتعد مكانا يلتهم فيه البرتقالتين حتى أحاط الأطفال بأمهم يتساءلون لم قدمت برتقالتين للطفل ، فقالت فى وسعى أن أجلب برتقالا كثيرا مما أملك من مال ، ولكن هذا الطفل مسكين لا يملك مالا ولا قوتا ، وربما لم يأكل منذ أيام ، هذا الطفل الذى لو ابتسم له الحظ فأوجده بين أبوين سعيدين لكان مثلكم يتمتع بحب أمه وأبيه وبالحلوى وكل ما تشتهيه نفسه ، أفليس من واجبنا ، وهذا الطفل لا ذنب له إلا أنه ولد من أبوين فقيرين أن نمد له يد المساعدة وأن نعمل على توفير الراحة له ما وسعنا ذلك ، ثقوا يا أولادى أن خيركم وأحبكم إلى هو من يظهر أمامى بمظهر العطوف الذى يجود بكل ما يملك فى سبيل معاونة الضعيف ومساعدة المحتاج والمسكين .

لقد ذرفت الدموع من عينى وأنا أراها تسيل كالماء على خدود أولئك الأطفال الأبرياء ، وهم يشعرون كأنما قد اقترفوا جرما فى حق ذلك الطفل الشريد ، وسرعان ما التف الأطفال حول الطفل الذى فرغ من التهام برتقالة وكل واحد يمد له يده ببرتقالته وبما يملك من قروش يسيرة .

هذا المنظر الذى رأيته أيقظ فى نفسى شعورا بالرضى لما تنطوى عليه النفوس من حب الرحمة والإحسان ، وأيقنت أن النفوس لا زالت تطوى فى دخائلها شعورا ساميا وإحساسا كريما ، وتأكدت أنه فى استطاعتنا أن نقوى مناعة هذا الجيل كى يؤمن بمبادئ التضامن الاجتماعى والإيثار على النفس وتربيته حتى يقدر واجباته تمام التقدير فيعمل للخير العام ، فإن من أهم أسباب انخفاض مستوانا الاجتماعى هو هذا الضعف فى عواطفنا .

ومنشأ هذا الضعف يأتى معظمه من الجهل المتفشى بين طبقات الشعب ، وخير وسيلة لعلاجه إنما تأتى بنشر التعليم وتهذيب النشء تهذيبا اجتماعيا صحيحا بحيث يفهم كل منهم أن من يعمل لمصلحة المجموع ، إنما يعمل لمصلحته الخاصة .

نسعى بعد ذلك فى الدعوة إلى هذه المبادئ عن طريق النشر والإذاعة و إقامة المهرجانات العامة التى تدعو إلى البر والإحسان وتخصيص أيام ومناسبات للفت النظر لما يجب أن نتعاون على علاجه جميعا ، فمثلا أرى أن نخصص يوما للطفولة ، وليكن هذا اليوم يوم عيد ميلاد أميرتنا المحبوبة " فريال " فيكون العيد عيدا شاملا للطفولة تحل فيه عاطفة البر والحنان من الأطفال القادرين إلى الأطفال المعوزين فيجودون بما يدخرونه ليرفهوا به على المحرومين.

فطلبة المدارس أولى الصغار بأن نغرس فى نفوسهم عاطفة البر والإحسان وقد سبق لوزارة الشؤون أن اقترحت أن يقام صندوق للإحسان فى كل مدرسة يضع فيه التلاميذ من آن لآخر ما يجودون به من مصروفهم ، ويخصص ما يجمع فى كل صندوق لإقامة حفل فى الأعياد العامة كعيد الأضحى وعيد الفطر يجرى فيه توزيع ما يرفه على الأطفال الفقراء .

فيا حبذا لو نفذت الوزارة هذا الاقتراح فيكون من ثمرات يوم عيد ميلاد صاحبة السمو الملكى الأميرة " فريال " أن نذكى فى نفوس أطفالنا الميسورين روح البر والشفقة والحنان على زملائهم وجيرانهم الفقراء البائسين فنغرس الفضيلة فى الأولين وننزل البهجة والغبطة على قلوب الآخرين ، ونشعر الفقراء ببر الأغنياء ، وتلك دعامة من دعائم الإصلاح الاجتماعى الذى ننشده جميعا ، وتقوية لروح التعاون بين الأفراد .

ويمكننا كذلك أن نخصص يوما ولنسمه مثلا يوم " العامل " فنجعل منه يوما شعبيا تقام فيه معارض الصناعة المصرية التى أنتجتها يد العامل المصرى ، ولست أرى ما يمنع من أن تقام تلك المعارض فى الميادين العامة على أن تباع المعروضات بسعر مناسب حتى يتمكن كل فرد من الاقبال على شرائها ليتعرف إلى جهاد زميله المواطن المصرى ، ولا بأس على الحكومة من أن تساهم بنفوذها ومالها فى سبيل إنجاح ذلك العيد ، على أن يخصص ما يجمع من التبرعات لصندوق إعانة العمال .

واقترح أيضا أن نخصص يوما وليكن يوم ١٥ نوفمبر من كل عام وهو اليوم الذى من الله فيه على الفاروق بالشفاء من حادث القصاصين لإقامة سوق خيرية لجمع التبرعات للمستشفيات حتى تستطيع تلك الجمعية ذات الغرض النبيل من النهوض برسالتها السامية نحو المرضى ممن هم فى دور النقاهة والمحتاجين للأطراف الصناعية .

كما يجب أن نخصص يوما من أيام السنة للمعاونة على مكافحة التسول والتشرد ، فتنظم الحكومة مهرجانات شعبية تستعين فى إقامتها بفرق الملاجىء والفرقة الحكومية للتمثيل والموسيقى ، وتخصص إيراد ذلك اليوم للمساعدة فى علاج المشردين والمتسولين و إرشادهم

إلى ما يصلح شأنهم ويوفر لهم حياة شريفة فيها عزة وكرامة لكى يليق بالواحد منهم أن ينتسب إلى بلاده ذات الآمال العالية والأطماع العالية، فكفانا ما هو مشهور عن مصر من أنها بلد الشحاذة والشحاذين ، والأطفال المهمل والمشردين .

نريد أن نرى بيننا من يقدر كلمة المسيو شارل ديبوى أحد رؤساء الوزارة الفرنسية الذى قام فى إحدى المهرجانات التى أقيمت لجمع شمل الطفولة المشردة والدعوة إلى الاحسان إليها فقال :

" ان أولئك الأبناء الصغار الذين ننظر إليهم فى بعض الأحايين بعين الازدراء هم رجال المستقبل وبأيديهم صكوك المجد والفخار ، فاهتموا بهم إن رأيتموهم واعطفوا عليهم إن صادفتموهم ، واعلموا أن الوطن مقدس والبلاد غالية والديار عزيزة ، فربما خرج من بينهم من يرفع راية الوطن إلى أعلى منار ويسير بنا فى طريق الشرف والمجد " .

نريد أن يكون لنا عيد للطفولة وعيد للعمال والمرضى والمشردين والفقراء والمساكين ، نريد أن نجعل من أيامنا مواسم لعمل الخير فنمسح دمعة المحتاج ونأسو جراح المريض ونؤدى حق البائس والشريد ، فالفرد هو الأمة ، والأمة هى الفرد ، فما يصيب الفرد من مرض أو صحة أو ضعف أو قوة إنما يصيب الأمة كذلك ، لأن الفرد هو نواة الأمة ، وأفراد الأمة هم بناة مستقبلها ، وعلى مصيرهم سيتوقف مستقبل بلادهم ، اذا رزقنا الله حظا طيبا فى مستوى أفراد أمتنا صحيا واجتماعيا وعقليا استطعنا أن نؤمل فى مستقبل تستعيد فيه بلادنا مكانتها اللائقة بين أمم العالم المتحضرة ، والعكس بالعكس .

جعل الله أيام هذه الأمة أعيادا تتصل وتزدهر فى ظل حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم فاروق الاول حفظه الله .

زينب محمد حسين